هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي

L'identité de la littérature entre la fréquentation et l'absence dans Le discours critique arabe postcolonial

د.طارق ثابت
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي
كلية الآداب واللغات (الجزائر)

Resumé

Le terme de discours critique postcolonial désigne une transition temporale / historique (période colonial, période postcoloniale - libération et indépendance). La littérature et la critique produites sous l'influence de la situation engendrée par l'impérialisme sont une littérature et une critique postcoloniale, De là, se pose la problématique de ce discours critique postcolonial qui traite avec la mémoire et l'identité, et la relation entre eux, en mettant l'accent sur le point de vue d'Edouard Saïd et de Abdullah Aroui, les deux théoriciens arabes du post colonialisme. Ce sont là les différentes questions auxquelles va essayer de répondre ce travail.

Mots-clés: littérature postcolonial, l'identité, la critique culturelle, la critique postcolonial

Abstract

The term postcolonial critical discourse refers to a temporal / historical transition (colonial period, postcolonial period - liberation and independence). Literature and criticism produced under the influence of the situation created by imperialism are literature and postcolonial criticism, From there arises the problem of the postcolonial critical discourse that deals with memory and identity, and relationship between them, focusing on Edouard Saïd and Abdullah Aroui, both Arab theorists of post colonialism. These are different questions that will try to answer this work.

Keywords: postcolonial literature, identity, cultural criticism, postcolonial criticism.

الملخص :

يشير مصطلح الخطاب النقدي مابعد الكولونيالي إلى فاصلة زمنية/ تاريخية (مرحلة الكولونيالية ومرحلة ما بعد الكولونيالية ــ التحرر والاستقلال)، فالأدب والنقد الذي كُتب بتأثير من الوضع الذي خلّفته الإمبريالية هو أدب ونقد ما بعد الكولونيالية، ومن هذا المنطلق تُطرح إشكالية هذا الخطاب النقدي مابعد الكولونيالي الذي يتعامل مع الذاكرة والهوية، وما هي العلاقة بينهما، متبنيين في ذلك طرح ادوارد سعيد وعبد الله العروي –باعتبارهما منظرا الفكر العربي لما بعد الكولونيالية، كل هذه الأسئلة وغيرها هي ما سوف يجيب عنه البحث.

الكلمات المفتاحية: الأدب الكولينيالي، الهوية، النقد الثقافي، أدب ما بعد الاستعمار.

أولا– مقدمات عامة: أصبح مصطلحُ ما بعدَ الاستعمار تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي، ومصطلح الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي يشير إلى حقل من حقول الدراسات الثقافية؛ التي نشأت في زمن ما بعد الحداثة، على أنقاض البنيوية وشكلانيتها المتطرفة، وقد "أسَّست الدراسات ما بعد الكولونيالية دعائم مذهبها على دراسة المحتوى الثقافي لأدب مرحلة الحداثة؛ خصوصا في تجلياته الإمبريالية"[1]، والكثير من الدارسين يُنْظَر إلى حقل الدراسة المسمّى النظرية ما بعد الكولونيالية أو الدراسات ما بعد الكولونيالية؛ على أنّه جزء من حقل النظرية الثقافية أو الدراسات الثقافية متعدد الفروع، الذي يعتمد على الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والدراسات الإثنية، والنقد الأدبي، والتاريخ، والتحليل النفسيّ، وعلم السياسة، والفلسفة في تفحّصه النصوص والممارسات الثقافية المختلفة.

و الدراسات ما بعد الكولونيالية قد ترعرعت على كلٍّ من انهيار الإمبراطوريات الأوروبية العظمى في أربعينيات القرن العشرين، وخمسينياته، وستينياته، وما تلا ذلك من بروز الدراسات الثقافية المناهضة للهيمنة في الدوائر الأكاديمية و مجال الدراسات ما بعد الكولونيالية يدرس بطرائق شتّى من بينها[2]:

أ– دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها؛ أي كيف استجابت لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه خلال الاستقلال. وهنا تشير الصفة «ما بعد الكولونيالية» إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريباً النصف الثاني من القرن العشرين.

ب– دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها؛ أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه منذ بداية الكولونيالية، وهنا تشير الصفة «ما بعد الكولونيالية» إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريباً الفترة الحديثة، بدءاً من القرن السادس عشر.

ج– دراسة جميع ثقافات المجتمعات أو الأمم؛ من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من ثقافات المجتمعات أو الأمم الأخرى ؛ أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافاتُ الفاتحة الثقافاتِ المفتوحةَ لمشيئتها؛ والكيفية التي استجابت بها الثقافات المفتوحة لذلك القَسْر، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه، وهنا تشير الصفة «ما بعد الكولونيالية» إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية والثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كلّه، والكثير من الدارسين لماهية هذا الخطاب يتساءلون فيما إذا كان الخطاب الاستعماري خطاباً متجانساً كله في نفس النظرة أم لا، أم أن هناك خطابات مختلفة له، ومن هنا يمكن القول بأن وجود خطابات مختلفة في فترة الاستعمار لا تصور كلها الأهالي بطرق سلبية، يعود إلى اختلاف السياق الذي كتبت فيه نصوص بعينها، فالثقافات التي قاومت التغلغل الاستعماري نعتت بالهمجية والمتخلفة مثلا، وكان ذلك مبرراً للقضاء عليها، أما الثقافة التي رضيت بالحكم الاستعماري، وربما تعاونت مع السلطات الاستعمارية في إقامة المستعمرات، فإنها كانت توصف عموماً بالثقافات المتحضرة والمحبة للسلام ولا تزال هذه النظرة سائدة إلى اليوم عبر ما يسمى بقانون تمجيد الاستعمار في الكثير من الدول، والمشترك في كل دراسات ما بعد الكولونيالية هو ذلك الاهتمام، لا بانقضاء الحداثة الأدبية، بل بإعادة تحديد موقعها الثقافي، وإلى جانب من هي تقف، في ذلك الانقسام المريع مابين القوة والحقيقة[3]، كما أن احد الاهتمامات الأساسية لما بعد الكولونيالية (شأنها في ذلك شأن كل الدراسات الثقافية) هو إلقاء الضوء على محاولات الحواف والهوامش ونضالها من أجل إعادة تحديد المركز وتشكيله، أو إلغائه كما يقول بذلك[4] أحد المنظرين الكبار لما بعد الكولونيالية ألا وهو (هومي بابا)، وذلك في مراجعة غير مسبوقة للحكم على الأشياء من موقع خارج عن نطاق ثقافة المركز: مراجعة لا تنظر إلى اللاغرب على أنه مجرد آخر للغرب، أو موقع يجري تعريف تاريخه وهويته وفق صياغة غربية قامت بها حركة الحداثة، طوال العقود السابقة، وقد جاءت الدراسات ما بعد

الكولينيالية لتنتظم باعتبارها مؤسسة فاعلة في الكتابة، ومروجة لأفكار معينة، عبر مشروع يتبنى حالات كتابية، تنحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، وإلى إعادة النظر في تاريخ آداب الإمبراطوريات السابقة، بحيث تشمل

المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي، بما تركه من آثار مختلفة. وباعتبارها أنتجت نوعاً من الكتابة يحمل – حسب الخطاب النقدي المعني بالاستعمار وما بعده – قواسم مشتركة إلا أنها في مجملها آدابٌ أعادت كتابة تاريخ الحضارة الاستعمارية نفسها من وجهة نظر المستَعْمَرين[5].

وقد تم اعتبار كل من (إدوارد سعيد)[6] و(هومي.ك.بابا Homi.k.Bhabha)[7]، الركيزة الأساسية لنظرية ما بعد الكولونيالية، بحيث يمكن تلمس معالم هذه النظرية في كتاباتهم المتعددة؛ خصوصا كتابي إدوارد سعيد (الاستشراق)[8] و(الثقافة والإمبريالية)[9]؛ وكون هذين هما من المهاجرين إلى أمريكا من بلاد الهامش يلقي الضوء على بعض العوامل الأساسية من وراء ظهور هذه النظرية؛ المحتفية بالهجنة المتمثلة في عالم جديد يرتادونه ويبحثون عن صورتهم فيه، بديلا عن ثقافاتهم الوطنية[10]، فيما يمكن انتقاده بأنه إعلاء متصل للمثقف المهاجر، باعتباره مالك الحقيقة ومّجمع كل الثقافات، على نحو يحرره من روابط الجنس والعرق والطبقة والموقع السياسي والثقافي.

ثانيا– جذور الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي: يعتبر الناقد العربي إدوارد سعيد من مهّد وبقوة، لنظرية ما بعد الكولونيالية، خصوصا من ناحية مفهومها المركزي الكاشف عن «تمفصلات» الثقافة والقهر الإمبريالي، وكل ذلك في إطار من السعي إلى «فك الاستعمار» (Décolonisation) عن العالم الثالث[11]، فهو أول من أسس هذا الحقل المعرفي (كتابة ما بعد الاستعمار)، وحاول لزوم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لا بد من ربطه بمظاهر الدنيا السياسية والاجتماعية والثقافية. فالنصية في رأي سعيد غير مقنعة بحال من الأحوال[12]. ومن هنا يبدوا ادوارد سعيد حريصا على تحفيز الوعي النقدي وتنشيطه بغرض العودة إلى خطاب يعزز قدرة الإنسان على رفض أية فكرة متعالية، بل ويعزز قدرته على صنع تاريخه. من خلال تاكيده على أن النزعة الإنسانية هي سبيلنا لمناهضة ما يشوه وجوه التاريخ من مظالم وسياسات لا إنسانية، عبر كتابات تعلي من كرامة الفكر الإنساني، وتقاوم روح التقليد والسلطة والجمود، يقول في هذا الشأن: "إن النزعة الإنسانية الحقة تقوم على الإحساس بالانتماء إلى جماعة كبرى تضم باحثين آخرين ومجتمعات وعصوراً أخرى، فما من باحث إنساني بمعزل عما حوله،... لذا فواجبنا يتمثل في توسيع دائرة النقاش، أي أن نجابه أشكال الظلم والمعاناة، بأن نضعها جميعاً داخل سياق أرحب ينهل بغزارة من التاريخ والثقافة، والواقع الاجتماعي الاقتصادي"[13]، ومن هنا في نظره أن الناقد – في سعيه إلى الكشف عن أساليب الهيمنة – لا بد أن يمتلك دربة وذائقة خاصتين، بعيداً عن الانقياد لأية سلطة تحول بينه وبين رغبته في تغيير العالم، ومناهضة كل ما يشوه وجه التاريخ من مظالم وسياسات لا إنسانية. فلا يجوز للناقد أبداً أن يقدم خبرته خدمة تباع للسلطة المركزية في المجتمع لإضفاء المسحة الشرعية على مسلكها، وأنّ الذي يمتهن خدمة السلطة القائمة من أجل تحقيق مكاسبه الشخصية، هو نوع في غاية الخطورة، ويطلق عليه في كتابه (تمثيلات المثقف)[14] اسم المهني أو الخبير أو المستشار، ويُقابل هذا النّوع من المثقّفين المثقفُ الملتزم صاحب الموقف الذي لا يجري وراء بريق المناصب، ويصبّ اهتمامه على الوقائع المتعلقة بضروب المقاومة لسيطرة الأجهزة القمعية بجميع أشكالها، كما يعنى بكشف أساليب توظيف النصوص والثقافة لتفعيل هيمنة خاصة، تقنع التابع بدونيته وعدم قدرته على المقاومة[15]

كما يعتبر الناقد والمفكر المغربي عبدالله العروي[16] أحد أقطاب هذه النظرية أيضا في العالم العربي وهذا من خلال ما يسميه هو بالتاريخانية[17]؛ بمفاهيمها المتعددة، وذلك بالاستناد إلى الوعي التاريخي النقدي، في الحداثة، و"عبدالله العروي، وهنا مصدر قوته، اختار، ودون أن نتغافل عن ثقافته الغربية العميقة، أن يدرس الفكر العربي أو ـــ وتبعا لعنوان كتابه الأشهر ـــ «الإيديولوجيا العربية المعاصرة»[18]، وكل ذلك بالاعتماد على نوع من التحليل غير الرحيم لعوائق التحديث (تحديث المجتمع) التي تقف وراء فشل مشروع الدولة القومية"[19]؛ غير أن مناقشته للدولة القومية لم تجعله، وفي إطار نوع من التحليل الثقافي، يسلم من استحضار الدولة المستعمَرة التي سبقتها، هذا بالإضافة

إلى الدولة الليبرالية التي لا يمكن التغافل عنها هي الأخرى في هذا السياق؛ ولذلك فإن العروي لا يقفز على الغرب؛ الذي يراه في أساس الفكر العربي، إضافة إلى ما يدعو إليه من انفتاح على المجتمع العصري المتمثل في العالم الغربي، وبالاستناد إلى ما ينعته في «الإيديولوجيا العربية المعاصرة» بـ"الوعي النقدي التاريخي الكامن في قلب التاريخ الكوني"[20]، وفي الوقت ذاته لا يدعو إلى اكتفاء الفكر العربي بالغرب، بل عليه أن يخرج من «الأدلوجة» لكي يطرق باب الفكر الحديث المطابق للواقع، ورغم هذا التقدير للغرب فإنه لا يقفز على «الاستعمار»، بل إنه يراه في عمق «استرسال التاريخ»؛ فكل مجتمع هو نتاج موجات استعمارية متعددة، إذ لا يوجد عرق صرف أو طاهر وبالمثل لا توجد ثقافة في معزل عن التأثيرات الخارجية[21].

وإذا كان الكثير من الدارسين يعتبرون أن ادوارد سعيد وعبد الله العروي هما منظرا الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي فإنهم يعتبرون من جهة أخرى أن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»[22] للأديب السوداني (الطيب صالح) هي أساس ظهور «نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي»، وأنها مهدَّت لهذه النظرية، حتّى إن بطل (موسم الهجرة إلى الشمال) يمثل شكلاً من أشكال المجابهة الحقيقية للغرب، إذ يصيح (إنني جئتكم غازياً)، وهو يتصور نفسه إلهاً إفريقياً يخوض معركة جنسية، يراها البعض سادية، والغرض منها تحقير الآخر وتدميره بلا شفقة، ففي اللاوعي يقيم بطل هذه الرواية "مفارقة حادة بين صنيع الإنجليز في السودان الذين استعمروه فاتحين بالقوة العسكرية الفائقة وبين صنيعه هو، إذ إنه أتاهم غازياً في عقر دارهم في لندن، ليثأر مما فعلوا، وينتقم بوسيلة أخرى، وهي غزو نسائهم"[23] وهكذا فليس غريبا أن يشكل الطيب صالح، برائعته، مدرسة امتد تأثيرها إلى العديد من البلدان العربية.

ثالثا–الهوية واشكالياتها في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي: تجدر الإشارة إلى أن الخطاب النقدي مابعد الكولونيالي رفض سلوك سبيل الأصولية الثقافية أو القومية أو الدينية؛ حيث تؤكد ما بعد الكولونيالية على هويتها الإنسانية الأوسع، في طرحها لمفهوم التلاقح الثقافي، الذي عبر عنه كمال أبو ديب مترجم كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) بمصطلح (الهجنة)؛" ذلك المفهوم الرافض لمبدأ الهوية النقية، باعتباره (أي مبدأ الهوية النقية) مفهوما قام بصناعته الغرب، ومن ثم فلا يجدر بالثقافات الأخرى استيراده وتبنيه من منطلق رد الفعل"[24]؛ إذن فوظيفة النظرية النقدية – في مدارس مابعد الكولونيالية – لا تقتصر فقط على دراسة الإطار الشكلاني للخطاب وقيمته النصية؛، بل تتعدى ذلك إلى دراسة عوامل نشأته ومسبباته ، وكذلك إعادة النظر في كل ماكُتب إبان حقبة الحداثة، التي لم تكن إلا استعمارية، ومثال ذلك ما تطرحه مابعد الكولونيالية من ضرورة أن يتقبل العالم الغربي رواية المهاجرين واللاجئين اللذين أتوا إليه من المستعمرات السابقة، على إنها رواية أصلية نبعت من داخل هوية الغرب القومية الحديثة، وتأكيدا على تقبل الغرب باندماج هذه الأقليات داخل بنيته الاجتماعية، ومشاركتها في تشكيل هويته القومية التعددية الحديثة، وكثيرا ما تكون رواية هؤلاء المهاجرين منطوية على إعادة قراءة للمرحلة الاستعمارية السابقة، بعيون الشعوب المستضعفة، التي تؤسس الآن لإعادة كتابة التاريخ من جديد، ومن خلال مقولة الهوية أوجد أدباء ونقاد ما بعد الكولينيالية مفهوم موازي لها هو القومية؛ هذه الاخيرة التي نجد ادوارد سعيد رافضا لها بوصفها أساسا للهوية، وعلى اعتبار أن القومية ذاتها هي فكرة أوروبية جاءت من أوروبا مع الاستعمار، ثم ورثتها مجتمعات العالم الثالث مع ما ورثت من الاستعمار، فأعاقت استقلالها الحقيقي، وأدخلتها في أوهام وضلالات بعيدة، أضف إلى ذلك أنه يرى كما يرى بعض كتاب ما بعد الاستعمار أن واقع ما بعد الاستعمار "هجرة المستعمِرين إلى المستعمرات، أو الهجرة من المستعمرات إلى مراكز القوة المستعمِرة) أدى إلى هوية قومية أكثر تداخلاً وتهجيناً مما كان معروفاً في الماضي ويقول في هذا الشأن: "إن جميع الثقافات، جزئياً بسبب تجربة الإمبراطورية مشتبكة إحداها في الأخريات، ليس بينها ثقافة منفردة ونقية محض، بل كلها مولدة مهجنة متخالطة.. وأن هذا ليصدق على الولايات المتحدة، بقدر ما يصدق على الوطن العربي الحديث"[25].

ومن خلال شرح آلية تشكل الهوية في خطاب مابعد الاستعمار يقف إدوارد سعيد في مشروعه النقدي على مفردات لها أهميتها الخاصة في هذا المجال، منها على سبيل المثال "الاستسلام"، التي يقوم فعل الكتابة بالتصدي لها، ولكل ما تعنيه من دلالات الخضوع والاستكانة، اللذين هما ضد وظيفة الكتابة التي تحتوي على فعل وحركة أو تعبير ما، بشرط أن يكون تعبيراً فاعلاً ومتجدداً باستمرار وغير مستسلم، ومن خلال تشكل الهوية والهوية المضادة لها يستخدم كذلك ادوارد سعيد مفردة "التنقيب"، ويشير فيها إلى طبيعة الدور الذي يجب أن يقوم به المثقف حتى تكون كتاباته فاعلة غير مستسلمة، وهو دورٌ شبيه بدور الباحث الرحالة الذي يحمل في جعبته متلازمتين هما: الرغبة المستمرة في التنقيب، والشك فيما هو مستتر وصولاً إلى معرفة أعمق وأشمل[26]

وفي ضوء أطروحة إدوارد سعيد[27]ثمة سياقان متناظران ومتداخلان بشكل صارم هما سياق الواقع التاريخي كما أفرزه الفعل الاستعماري طوال قرنين على الأقل، وسياق النصوص الأدبية المتشكل على خلفية الصراع متعدد الوجوه وإفرازاته ــ أي الهيمنة والمقاومة؛ الفعل ورد الفعل ــ سياقان يتمفصلان ويتقاطعان ويلتحمان ويفرضان في تمفصلهما وتقاطعهما والتحامهما أشياء مشتركة كثيرة من بينها كما ذكرنا مشكلة الهوية، ولهذا يمكن القول بأنّ كتّاب ما بعد الاستعمار يشكلون منظومة فكرية مؤثرة وفاعلة، ترى مجموعة التناقضات المحبوكة في الوجود الشكلي لنص ما، فتعري هذه التناقضات أو تفككها. وقد تلجأ إلى طريق إعادة سرد روايات القوى المختلفة لتشكيل حوارات ثقافية جديدة، آخذة بعين الاعتبار قوة السلطة التي تتدخل في عملية ظهور عمل ما في فترة تاريخية محددة، أو تدفع نصوصاً معينة إلى الصدارة في فترة ما.

إن تأكيد الاختلاف والتنوع في أدب ما بعد الكولونيالية لا يلغي التفاعل، فهو ينكر مقولة صراع الحضارات، ومقولة الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا لصالح مقولة أخرى هي الهجنة، فلا وجود لهويّات صافية، وحتى الثقافة الغربية التي تسيّدت منذ عصر الأنوار هي هجينة، لها مصادرها ومرجعياتها خارج الغرب الأوروبي[28]، ومن هنا فدحض وهم النقاء وتكريس فكرة الهجنة ربما كان تمهيداً لعولمة أخرى أكثر عدالة وإنسانية، يقول إدوارد سعيد " إن فكرة التعددية الثقافية، أو الهجنة ــ التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم ــ لا تؤدي بالضرورة دائماً إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة، وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة، وإنه لعلى قدر كبير من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقت يحاول فيه متطرفون مثل صامويل هنتنغتن أن يقنعوا العالم بأن صدام الحضارات أمر محتوم لا مفر منه "[29]،وهكذا فإن إدوارد سعيد في مقالاته التي اختارها في كتابه (العالم والنص والناقد) يؤكد على الروابط التي تجمع النصوص بالوقائع الوجودية للحياة البشرية والسياسية والمجتمعات والأحداث. وبسبب من ذلك، كان الأدب بالنسبة إليه مهماً في عالمنا الحاضر؛ لأنه يحمل كل ما هو جمالي وتاريخي ومجتمعي، ولذلك ينبغي للنظرية النقدية أن تضع كل هذا في اعتبارها أثناء تعاملها مع النصوص[30]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن عبد الله العروي ينتقد الغرب سواء على مستوى الحضور المعرفي الصرف، أو على مستوى الحضور الثقافي الإمبريالي؛ إلا أنه، ومقارنة مع إدوار سعيد، يميز بين الغرب التاريخي والغرب الاستعماري المتأخر؛ الذي حصر إدوارد سعيد مجال اهتمامه فيه، بل إن عبد الله العروي يشير ـــ وإن عرضا ـــ إلى أن إدوارد سعيد سحب على الغرب التاريخي ما يصدق فقط على الغرب الاستعماري المتأخر، وفي السياق نفسه يتصور العروي أن المثقف العربي يرفض التمييز بين مقومات الفكر الحديث وبين إيدولوجيا الغرب الإمبريالي الحالي، والأهم بالنسبة إليه، في نطاق النقد الجذري للغرب، هو أساس «العقلانية» التي ينهض عليها هذا الغرب؛ يقول موضحا هذه الفكرة: "الواقع أننا إلى حد الآن، وباستثناء كتابات ظرفية، لم نر مفكرا من كبار مفكري العالم الثالث نقد نقدا جذريا الأدلوجة الأوروبية الأساسية، أي العقلانية المطبقة على الطبيعة والإنسان والتاريخ"[31]، وكما أن الحداثة، في صيغتها الأوروبية التي تواجهنا اليوم والتي ينعتها العروي بـ«الحداثة الموشومة[32]»، تزامنت مع الاستعمار؛ فمعنى ذلك أن العروي لا يتغافل عن الحداثة في صورتها

الاستعمارية الاستعبادية الاستغلالية والقاتلة في أحيان... تلك الحداثة التي ـــــ وكما يشرح ـــــ غيرت الآفاق، وتركت النفوس على حالها، بل دفعت بها إلى الوراء، ونمَّت بالتالي النزعات المعادية لها، هذا بالإضافة إلى أنه لا يتصور أن التحديث تزامن مع الاستعمار في العالم الثالث فقط، فقد حصل هذا التزامن داخل أوربا ذاتها. وهذا ـــــ في تصوره ـــــ هو مكر العقل الذي أخذنا نتعرف عليه، غير أن ما يهم العروي، وفي المقام الأول، لا ينحصر في هذا النوع من التشخيص للغرب؛ أو لنقل إن هذا النوع من التشخيص لا ينبغي أن يكون في معزل عن تشخيص هوية الذات الذي كرس له العروي أهم مؤلفاته، ودون أن نتغافل عن منجزه في مجال التاريخ الذي لا نعدم فيه النقد الذي وجَّهه لـ«التأليف الاستعماري» و«التأليف العربي الإسلامي»، غير أن ذلك لم يجعله يستبعد ما نعته بـــعار الاستعمار أو القهر الكولونيالي الذي يشرحه قائلا: "لم تعد الإمبريالية تعني القهر، الاضطهاد الخفي والمكشوف، الجور الذي تزكيه قوة السلاح، إنما تمثل الوجه الخلفي للقلق المعشش في داخلنا"[33]،

وتمييز العروي بين الغرب التاريخي، والغرب الاستعماري لم يخل دون تقدير إدوارد سعيد لخطاب عبد الله العروي؛ لما يتسم به هذا الخطاب الأخير من تحليل قل نظيره في الفكر العربي المعاصر الذي وجه إليه العروي نفسه .نقدا قويا. وإجمالا يشير إدوارد سعيد، في أهم كتبه ، إلى العروي؛ ومن هذه الناحية ينعته بـــ"المؤرخ والمنظر السياسي" في كتاب «الاستشراق»، وبـــ"أفضل مؤرخ في شمال إفريقيا اليوم" في «الثقافة والإمبريالية»[34].

و إشكالية الهوية في نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي المنتظم في نطاق النقد الثقافي يعرضها العروي في سياق أوسع هو سياق: العرب والتعبير عن الذات؛. ومعنى ذلك أنه ينظر إلى الموضوع في ضوء معيار التعبير الذي يتطلب وقفة خاصة ذات صلة بـــجبهة النقد الأدبي[35].

وثمة مظهر آخر يمكن التشديد عليه، في إطار من الإفادة من نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، هو مظهر الثقافة، والمؤكد أن الثقافة مفهوم زئبقي، ومنفلت، لكنها تظل، وفي ضوء المستندات النظرية لخطاب ما بعد الكولونيالية، فضاء للمقاومة، و"من هذه الناحية تشكل الثقافة، في خطاب العروي مدخلا لدراسة التعثر الذي مس الدولة القومية بعد الاستقلال، وكما أنها تشكل مدخلا للحداثة في مواجهة «التقليدانية»"[36]، فالمشكلة تظل، في الأساس، وحسب العروي، ثقافية؛ ثم إن المثقف العربي، وعلى الرغم من ثقافته الغربية، تظل مشكلته عربية،. وهذا ما تعكسه تحليلات العروي نفسه، وبدءا من كتابه الصادم والإشكالي «الإيديولوجيا العربية المعاصرة» الذي هو تحليل صارم لـــ«أداء المثقف» (العربي) من حيث العلاقة مع «الليبرالية»، وبالتالي لـــ«الإخفاق» الذي يطاله من هذه الناحية.

رابعا– خاتمة ونتائج: إن أدب ما بعد الكولونيالية لا يتعامل مع الهوية جوهراً ثابتاً، أو ماهية مكتملة، سابقة على وجود الإنسان، بل حقيقة متبدلة، ومصنوعة بأدوات ومواد خام الواقع والتاريخ؛ أي على أيدي البشر وبإرادته، إن مفارقة الهوية التي مصدرها الانتماء المتعدد إلى الأمكنة والأعراق والثقافات، والمترشحة عن تجربة ذات أوجه متنوعة تتسلل إلى نسيج العمل الأدبي المعروف بأدب ما بعد الكولونيالية فنكون إزاء بعثرة بدلاً من تماسك كاذب، وانفتاح على ممكنات الحياة بدلاً من العزلة، وهذا ما ينعكس على الشكل والأسلوب أيضاً فنشهد تصويراً بارداً، حاداً، حيادياً، بلا مديح أو رثاء أو أحكام فضفاضة[37]،ومن هنا لابد أن يجتمع للقارئ وعي بالمعنى الأدبي يتيح له فرصة التعامل مع نصوص ما بعد الاستعمار ، بما تحمله من تجليات جمالية مكشوفة، ووعي ثقافي يتيح له فرصة التعامل مع المعنى داخل الثقافة، وهو معنى مضمر يتطلب الكشف عنه كما يقول (عبد الله الغذامي) أدوات خاصة، تأتي التورية في مقدمتها؛ فهناك ازدواج دلالي ذو اتّجاهين: أحدهما واع وأقل تأثيراً، والآخر عميق ومضمر وأكثر تأثيرا[38]، بحيث أنّ الهوية في كتابة ما بعد الكولينيالية هي بشكل عام مناقشة للعملية التي يتم بها كتابة الهوية عن طريق مايسمى تحريف اللغة بما لها من قوة، وتحريف الكتابة بما تحتويه من دلالة على السلطة، وإبعادها عن الثقافة الأوروبية المهيمنة، فيما

يمكن أن يطلق عليه (عملية الاستحواذ) وهي العملية التي يتم بها أخذ اللغة وتهيئتها لكي تحمل حمولة التجربة الثقافية الخاصة لشخص ما، وبالتالي نكون أمام لحظة حيوية لنزع الطابع الاستعماري عن اللغة والكتابة الأجنبية[39].

إن الاختلاف في أدب ــ ما بعد الكولونيالية، خطوة لا باتجاه التقوقع في ضمن مجال محدود، بل اختراق كل مجال أو حد نحو الرحابة الحرة للإنسانية، تقبل التنوع والاختلاف[40]، وترفض التمسك بهويات ضيقة، عدوانية، عمياء، كارهة. وهذا ما حاول ادوارد سعيد وعبد الله العروي –باعتبارهما منظرا الفكر العربي لما بعد الكولونيالية– بيانه؛ بالقول أن الهوية العربية لا يوجد أي تعارض بينها وبين هذه النظرية إذا ما اقتنعنا فقط أن الهوية ليست جوهراً ثابتاً، أو ماهية مكتملة، سابقة على وجود الإنسان، بل حقيقة متبدلة، ومصنوعة بأدوات ومواد خام الواقع والتاريخ.

مصادر ومراجع البحث:

أ–الكتب:

1–إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، ط1، دار الشروق، عمان، 1996.

2– إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.

3–إدوارد سعيد، تمثيلات المثقف، ترجمة حسام الدين خضور، ط1، دار التكوين، بيروت، 2003

4–– إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، 1997.

5––إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000.

6–ايمانويل فريس و برنارمور اليس، قضايا أدبية عامة، ترجمة لطيف زيتوني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004. 7–بيل أشكروفت، وآخرون: الإمبراطورية ترد بالكتابة، ترجمة وتقديم خيري دومة، عمان، دار أزمنة للنشر، 2005

8–تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة ثائر ديب، دار الحوار ، اللاذقية، 2000.

9– عبد الله العروي، أوراق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1991.

10– عبدالله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة بيروت، الطبعة الرابعة، 1981

11–عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1992 .

12–عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000

13–سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002، بيروت.

ب–المجلات والدوريات :

1–مجلة فصول، العدد 64، صيف 2004، ملف خاص عن ادوارد سعيد لمجموعة باحثين.

2– مجلة الكرمل، ع 78، 2004، صور المثقف عند ادوارد سعيد، مقال لفيصل دراج.

3– مجلة نزوى العمانية العدد التاسع والثلاثون – تموز 2004 ، هومي بابا والمنظور ما بعد الكولونيالي: فضاء الهجنة والترجمة الثقافية، مقال لثائر ديب.

4–مجلة نزوى العمانية، العدد 54 يناير 2006 ، الدراسات ما بعد الكولونيالية، دراسات الترجمة، مقال لدوغلاس روبسون، ترجمة ثائر ديب.

ج-المواقع الالكترونية:

1- صفحة المدى الثقافي، ادوارد سعيد، مفارقة الهوية والتاريخ، ، مقال لناجح المعموري http://almadapaper.net/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=30774

2- مجلة الكلمة الإلكترونية، السنة الأولى، العدد 4، أبريل 2007، خطاب المؤرخ/ عبدالله العروي ناقدا أدبيا،مقال لـ يحيى بن الوليد، http://www.al-kalimah.com/data/2007/4/1/Yhyabnalwalled.xml

3- موقع مجلة نزوى الأدبية، عبد الله العروي ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، مقال ليحي بن الوليد. http://www.nizwa.com/volume54/dr2.html

4-موقع الحوار المتمدن - العدد: 1303 - 2005 / 8 / 31، أدب ما بعد الكولونيالية؛ الرؤية المختلفة والسرد المضاد، مقال لسعد محمد رحيم. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341

هوامش البحث:

[1] ايمانويل فريس، برنارمور اليس، قضايا أدبية عامة، ترجمة لطيف زيتوني، عالم المعرفة: 2004، ص 136.

[2] مجلة نزوى العمانية، العدد 54 يناير 2006 ، الدراسات ما بعد الكولونيالية، دراسات الترجمة، مقال لدوغلاس روبسون، ترجمة ثائر ديب، ص 46.

[3] موقع الحوار المتمدن ، العدد: 1303، أدب ما بعد الكولونيالية؛ الرؤية المختلفة والسرد المضاد، مقال لسعد محمد رحيم، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341

[4] مجلة نزوى العمانية، العدد التاسع والثلاثون - تموز 2004، هومي بابا والمنظور ما بعد الكولونيالي: فضاء الهجنة والترجمة الثقافية، مقال لثائر ديب.

[5]سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002، بيروت، ص158.

[6]ولد إدوارد سعيد في القدس 1 نوفمبر 1935 لعائلة مسيحية، بدأ دراسته في كلية فيكتوريا في الإسكندرية في مصر، ثم سافر إلى الولايات المتحدة، بالإضافة إلى كونه ناقدًا أدبيًا مرموقًا، فإن اهتماماته السياسية والمعرفية متعددة واسعة تتمحور حول القضية الفلسطينية والدفاع عن شرعية الثقافة والهوّية الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني، يعتبر كتابه الاستشراق من أهم أعماله؛ و يعتبر بداية فرع العلم الذي يعرف بدراسات ما بعد الكولونيالية، توفي في احدي مستشفيات نيويورك 25 سبتمبر 2003عن 67 عاما.

[7] هومي بابا، أستاذ الأدب الإنجليزي والفن في جامعة شيكاغو، عضو الهيئة الاستشارية في معهد الفن المعاصر وعضو هيئة المديرين في المعهد الدولي للفنون البصرية بلندن، أستاذ زائر في عدد من الجامعات الدولية والموصوف بأنه واحد من بين العشرين مفكرا الأبرز في حقبتنا هذه، وبابا مؤلف كتاب موقع الثقافة (روتلدج 1994) ومحرر الأمة والسرد (روتلدج 1990)، وكلاهما كان لهما نفوذ واسع ورفيع في تحديد ما تعنيه الدراسات الكولونيالية والثقافية، وفي رسم آفاق النظرية المعاصرة.

[8] إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، المؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.

[9] إدوار سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، 1997.

[10] مجلة نزوى العمانية، العدد التاسع والثلاثون - تموز 2004، هومي بابا والمنظور ما بعد الكولونيالي: فضاء الهجنة والترجمة الثقافية، مقال لثائر ديب.

[11] صفحة المدى الثقافي، ادوارد سعيد، مفارقة الهوية والتاريخ، مقال لناجح المعموري http://almadapaper.net/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=30774

[12] إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000، ص8.

[13] مجلة فصول، العدد 64، صيف 2004، ص179–186.

[14]إدوارد سعيد، تمثيلات المثقف، ترجمة حسام الدين خضور، ط1، دار التكوين، بيروت، 2003. وهو ترجمة لكتاب إدوارد سعيد Representation of the intellectual.

[15]إدوارد سعيد، تمثيلات المثقف، ترجمة حسام الدين خضور، ط1، دار التكوين، بيروت، 2003 ، ص34–35.

[16] ولد المفكر و الروائي والكاتب المغربي عبد الله العروي سنة 1933 بمدينة أزمور المغربية، تابع تعليمه العالي بفرنسا في جامعة السربون، بدأ عبد الله العروي النشر سنة 1964 تحت اسم مستعار (عبد الله الرافضي)، احتوى نتاجه الإبداعي على دراسات في النقد الإيديولوجي وفي تاريخ الأفكار والأنظمة و أيضا العديد من النصوص الروائية، من أعماله: الإيديولوجيا العربية المعاصرة:تعريب محمد عيتاني وتقديم مكسيم رودنسون 1970، العرب والفكر التاريخي1973.

[17] عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1992، ص 155.

[18]عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995 ، وقد صدر الكتاب أول ما صدر سنة1966.

[19] موقع مجلة نزوى الأدبية، عبد الله العروي ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، مقال ليحي بن الوليد. http://www.nizwa.com/volume54/dr2.html

[20]عبدالله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة بيروت، الطبعة الرابعة، 1981، ص95.

[21] عبدالله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة بيروت، الطبعة الرابعة، 1981، ص 39.

[22] موسم الهجرة إلى الشمال رواية كتبها الطيب صالح ونشرت في البداية في مجلة حوار (ع 5–6 ص 5–87) في سبتمبر عام 1966، ثم نشرت بعد ذلك في كتاب مستقل عن دار العودة في بيروت في نفس العام، في هذه الرواية يزور مصطفى سعيد؛ وهو طالب عربي الغرب، يصل من الجنوب من أفريقيا، بعيدا عن الثقافة الغربية إلى الغرب بصفة طالب، يحصل على وظيفة كمحاضر في إحدى الجامعات البريطانية ويتبنى قيم المجتمع البريطاني، هناك يتعرف إلى زوجته جين موريس وهي امرأة بريطانية ترفض قبول املاءات زوجها، بعد سبعة أعوام يعود مصطفى إلى بلاده، حيث يلتقي هناك بصورة مفاجئة براوي القصة الذي عاش أيضا في بريطانيا. اختيرت رواية موسم الهجرة إلى الشمال كواحدة من أفضل مائة رواية في القرن العشرين وذلك على مستوى العالم العربي، و إجمالاً تتناول الرواية في مضمونها مسألة العلاقة بين الشرق والغرب.

[23]إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، ط1، دار الشروق، عمان، 1996 ص 205.

[24] صفحة المدى الثقافي، ادوارد سعيد، مفارقة الهوية والتاريخ، مقال لناجح المعموري http://almadapaper.net/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=30774

[25]إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1997 (من مقدمة الكتاب).

[26]مجلة فصول ، مقال لزينب الغازي،"عرض لكتاب جدل السياسة والثقافة في خطاب إدوارد سعيد النقدي"، العدد 64، صيف 2004، ص210.

[27] مجلة الكرمل، ع 78، 2004، صور المثقف عند ادوارد سعيد، مقال لفيصل دراج، ص31.

[28]تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة ثائر ديب، دار الحوار، اللاذقية, 2000, ص 17.

[29] إدوار سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الأداب، بيروت، 1997، ص 239.

[30]إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000، ص8-9.

[31]عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، ص120.

[32] المرجع السابق، ص135.

[33] العروي، أوراق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1991، ص17.

[34] إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، المؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981، ص 197، وينظر كذلك : إدوار سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، 1997، ص242.

[35] مجلة «الكلمة» الإلكترونية، السنة الأولى، العدد 4، أبريل، 2007، خطاب المؤرخ/ عبدالله العروي ناقدا أدبيا، مقال لـ يحيى بن الوليد،

http://www.al-kalimah.com/data/2007/4/1/Yhyabnalwalled.xml

[36] موقع مجلة نزوى الأدبية، عبد الله العروي ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، مقال ليحي بن الوليد.
http://www.nizwa.com/volume54/dr2.html

[37] تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة ثائر ديب، دار الحوار، اللاذقية, 2000, ص 39.

[38]عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 69-71.

[39]بيل أشكروفت، وآخرون: الإمبراطورية ترد بالكتابة، ترجمة وتقديم خيري دومة، عمان، دار أزمنة للنشر، 2005،ص26.

[40] مجلة نزوى العمانية، العدد 54 يناير 2006 ، الدراسات ما بعد الكولونيالية، دراسات الترجمة، مقال لـدوغلاس روبسون، ترجمة ثائر ديب، ص 41.